لغة الرواية بين الفصحى والعامية

أولاً: توطئة:

1- سوف تبقي اللغة العربية شامخة، وراسخة بمفرداتها السخية وألفاظها المعبرة، وصورها الجذابة، وأخيلتها الرائعة، ولن تزول ولن تتبدل ؛ لأنها لغة القرآن الكريم وأدب العرب، التى يرجع تاريخها القديم إلى [يعرب بن قحطان] وانتشرت بين القبائل العربية، وكانت لكل قبيلة لغتها، التى تختلف كثيراً أو قليلاً عن لغات القبائل الأخرى إلى أن تغلبت لغة قريش علي سائر اللغات أو اللهجات الأخرى، وكان ذلك إرهاصاً لنزول القرآن الكريم بها، ولم تكن ثمرات اللغة القرآنية بعيدة عن المنابت التى قيل الشعر العربى فيها، فالفصحى ثابتة من خلال إثبات الكثير من مفرداتها في القرآن الكريم ولكنها – بعيداً عن ذلك – لم تسلم من الاختراقات طوال رحلتها في العصر الحديث.

وقد استشرى اللغط النقدي فيما يذاع، وينتشر من الأدب شعراً ونثراً، وكان ينبغي أن يكون الأمر محسوماً مادامت الكتابة موجهه أساساً لمن يلهجون باللغة العربية الفصحى التى تتهم أحياناً بالعجز وعدم القدرة علي الاستجابة للتعبير عن متطلبات الحياة، إلا أن الشأن يشوبه بعض الاضطراب ؛ لأن الكثيرين يقدمون إبداعاتهم بالفصحى ثم يتحدثون في شئون الحياة باللهجة العامية التى تدور علي ألسنة العامة، ويفهمونها ويطربون لها، حتى صار المتحدث بالفصحى يلقي استهجانا وسخرية ممن يستمعون له أحياناً، ولكننا لا نغفل أو نضل عن جموع غفيرة من طبقات الأمة يحسنون الكتابة والحديث بالفصحى، ويحزنون من أي طغيان عليها،

أو قَدْح في سلامتها، وقدرتها علي التعبير عن متطلبات الحياة ...

وقد حَضَّ الإسلام على الفصحى الراقية من حيث تعلمها، وأُطر التعامل بها واستشعار رونقها ورفض تقعرها، ذلك أن معجمها اللغوي يتسع بالكثير من الألفاظ السهلة، الميسرة، ولا شك في أنها أقدر على تنويع الدلالات البيانية، وتعميقها واتساعها بصورة أكبر من اللهجات العامية المحدودة في مفرداتها ومعانيها ومستوي الكتابة بها.

2- يعود تاريخ اللغة العربية إلى ماض سحيق أنشطر منها قسم غير منضبط تماماً، حيث انتشر الحديث به بين الكثيرين من العامة وبعض الأدباء والمثقفين، الذين ربما قد يتضاءل لديهم المخزون المعرفي من مفردات اللغة، ولا زالت آثار ذلك ماثلة للعيان، ومتجلية في الأدب العربي بفنونه المتعددة، وبخاصة فن الرواية الأدبية، التى أخذت في الاتساع إلى أن صارت علي ما هي علية بصورة واضحة.

وتحدث الكثيرون عن ضوابط اللغة الفصحى، ومظاهر اللغة العامية، أو اللهجة العامية هذه التى تختلفُ في كثير من مفرداتها وتراكيبها ودلالات المعني فيها بين إقليم وآخر، وتدور ألفاظها علي ألسنة الكثيرين، ولا تخضع تماماً لقواعد اللغة الصحيحة من نحو وصرف، وليست محفورة في ذاكرة الأمة وغير مُثبتة في المعاجم اللغوية الأصيلة، وهي لغة الخطاب كثيراً بين الناس في الشارع والمنزل والسوق وفي المدرسة وفي الجامعة، ويُصاغ بها كثيراً الأدب شعراً ونثراً، ونطق بها الحكماء

في الأمثال، وتختلف في مظاهرها ومعانيها وطرق التعبير بها من إقليم لآخر، فلهجة أهل المغرب تختلف عن لهجات نظائرهم من أهل الشام، كما تختلف اللهجة العربية في ليبيا عن نظيرتها في العراق.

إن الدولة الواحدة تختلف اللهجة فيها من بلد لآخر، وأي توسع في استعمالها يُعارض ما يُنادي به المجمعيون العرب والمتخصصون الثقات من حُماة اللغة العربية أينما وجدت ووجدوا، لكن الموضوع علي إجماله يحمل في طياته كثيراً من الاختلاف في وجهات النظر المتعددة... ما بين حريص علي الفصحى وهي لغة القرآن الكريم والحديث النبوي والأدب العربي القديم والحديث، وبين دعاة العامية الذين يرون أكثر الأمة العربية تنطق بها وتفهم تراكيبها، وتستمع إليها من خلال الأناشيد والأغاني والتمثيليات الدرامية، مما يدعم قضية واقعية الخطاب في الأدب والحياة، لكن الحقيقة التى لا ينبغي تغييبها هي أن المتحدث بالعامية يمكن أن يؤدي غرضه من حديثه، وذلك إذا كان كلاماً منطوقاً مُرسلاً، لكن التحول إلى إثبات الآداب والفنون وسائر الثقافات بالعامية يُحدث كثيراً من المآزق والمزالق التى تعيق حركة التوحد العربي والتقارب الإقليمى، ويؤثر ذلك بشكل كبير في وشائج التقارب الثقافي المزمع تفعيلُة وتنشيطه بين سائر البلدان العربية .

أما مجالات الحرص علي اللغة الفصحى فتتجلي في إبداعات كثير من الرواد الذين سنتحدث عن أعمالهم، كما سنتحدث عمن أبدعوا في فن الرواية، وأدخلوا العامية في حواراتهم ويبقى أديب نوبل نجيب محفوظ رائداً في كتابته باللغة الفصحى الميسرة، والتى تُعرف باللغة الثالثة .

والرواية فن عربي أدبى أصيل، وهي في أساسها قصة طويلة بمعايير مختلفة، وذات ضوابط مُحكمة تتدخل في صياغتها اللغة والشخصية، والأحداث والزمان والمكان، والتى لها بداية تبدأ بها ونهاية تتوقف عندها، ولما أطل العصر الحديث وازداد التلاحم بين الأشكال الأدبية، حدث ما يمكن أن يكون تجديداً أو تحديثاً بارزاً للرواية، التى أخذت من التراث العربي القديم كما تأثرت بالأدب الأوروبي الحديث.

ونؤكد أن النماذج الحكائية في الأدب العربي قديماً وحديثاً لا تخلو من مؤثرات صينية وهندية وفارسية وغيرها، وأقرب ما يُذكر في هذا الطرح النقدي، والرصد التاريخي قصص " ألف ليلة وليلة" وقصص "كليلة ودمنة " لبيدبا الفيلسوف التى ترجمها إلى العربية "عبد الله بن المقفع" وسارت دورة الحياة، وأصبحت هذه النماذج محل إعجاب فى كثير من الآداب الأوروبية.

كما أن قضية الكتابة باللغة الفصحى واللهجة العامية، مطروحة للبحث والنظر اتفاقاً واختلافاً، لكن أول الرصد للبداية الحقيقية في لغة الرواية العربية في مصر كانت منحصرة في الفصحى المتحققة في مجالات الكتابة، وأما الحوار فكان بالفصحى أيضاً عند الكثيرين، الذين استخدم بعض الأدباء العامية في كثير من رواياتهم، كما سبق القول.

ثانياً– نماذج روائية متنوعة.

1- إن الاحتكام إلى الزمن في اختيار الروايات التى يمكن أن تُسهم في إيضاح الرؤية التى نحن بصدد البحث عنها في لغة الرواية، بين الفصحى والعامية سرداً وحواراً أو هما معاً، ذلك يجعلنا نلقي قليلاً من الأضواء علي رواية زينب للدكتور محمد حسين هيكل، هذه الرواية التى كثُر الكلام عنها، وطال البحث فيها خاصة أنها قد استندت إلى الكثير من الخصائص الفنية، التى تجعل مجال الدرس فيها مُتسعاً ومتنوعاً فقد أضاف هيكل إلى عنوانها قوله (مناظر وأخلاق ريفية) وبدأ الكتابة فيها بباريس عام 1910 م، وانتهى منها في السنة التالية، وتعددت أمكنة كتابتها بين باريس ولندن وجنيف، ولكن لم ينشرها للمرة الأولي إلا في سنة 1914 م كما كتب ذلك في مقدمتها.وكان حبه لوطنه إحدى دوافعه لكتابة هذه الرواية.

كما جعله لا يكتب عليها اسمه، وإنما اكتفى بوضع كلمتى (مصرى فلاح) وجاء في مقدمتها ما يلي "ولا أُريد أن أحكي اليوم عن قصة كتبتها صدر شبابي بأكثر من أني ما أزال أراها تمثل شبابي تمثيلاً صحيحاً، وإن فيها لذلك كثيراً مما أُحب، سواء لأنة دخل عالم الذكرى ، حتى لأعجز إن حاولت استعادته أو لأنه يُمثل أحلام الشباب وخيالاته مما أبسمُ لما أسمع من خيالات و أحلام لشبان هم اليوم في مثل سني يومئذٍ[1]".

وكان تعلقه بمصر كبيراً ورائعاً وقد تأجج شوقه إليها وهو شاب في زمن غربته للدراسة في أوروبا، ولذا فقد اختص وطنه بهذا الحب، والذي تجلى في رائعته الأدبية الشهيرة زينب، وأهداها إلى مصر الطبيعة الهادئة المتشابهة اللذيذة، كما أهداها إلى كل الذين أحبهم فيها، وقد كتب هذا العمل لأجلها، كما أهداها إلى أخت له جعلها جديرة بأن تستحق حُبه الصادق بعد مصر الوطن والوجود، وما يعنينا في هذا الطرح النقدي هو التعرف الحقيقي علي مستوى اللغة، وطبيعة خصائصها في هذا العمل المتقدم من عمر الرواية الفنية في مصر، وهي ذاتُ تميز في الصياغة والسبك اللغوي والتفرد الأسلوبي، ولعلها تقرب كثيراً من لغة طه حسين في رواياته، ولكنها تميل إلى خفة اللفظة وبساطة اللغة، وصدق الصورة التعبيرية، وهي أيضاً علامة علي طريق الرواية، وهذا الطريق تمثله في فصاحته ورقي لغته أعمال طه حسين وعباس العقاد الروائية، وعلي هذا الطريق إبداعات كثيرة متنوعة من حيث الاقتراب والابتعاد من اللغة الفصحى، ومن العامية كذلك ففي هذا الطريق تبدو "زينب" علامة فارقة وإحدى المنارات التى يصل ضوؤها إلى إبداعات نجيب محفوظ التى تلقي الرضا من جمهرةُ المبدعين والنقاد، وسبب هذا التميز بحق زينب أنها روايةٌ باللغة الفصحى الراقية المنضبطة، التى ناسبت جانباً أو شطراً كبيراً من صفحات هذه الرواية وهو فن الرسائل الذى له نصيب كبير، لا يستهان به في متن هذا العمل الخلاق.

ونؤكد صدق التعبير وعمق الوصف وجمال الصياغة في هذه الرواية التى وصف هيكل فيها ربوع وطنه وجمال مناظره وروعة ريفه وصفاء جوه في ليالى القمر المضيئ، فكتب يقول: " ما أحلي ليالى الصيف وما أسرعها مراً ! تسري بنا فتنسينا الحياة والوجود، وتبعث لنفوسنا بطيبها أكبر الهناء، ولو أن الأماني تُجاب لكانت كبراها استدامة هاته الليالى

الزاهرة، حيث كل شئ جميل ذاهب في أحلام، وحيث البدر يحبو في السماء تائهاً هو الآخر في خيالات حُبه، والطبيعة الصامتة، توحي بأصواتها نحوى الغرام إلى القلب، والفلاح الساهر يُرسل من سلاميته في جوف الكون نغمة رقيقة كلها الوجد والجوي"[2].

علي أن هذه اللغة تُمثل الجو الرومانسي الحالم في صيف الريف الجميل، لكن الأسلوب عند معالجة الحقائق يبتعد كثيراً عن هذه الخصائص مع الحفاظ علي فصاحة اللغة نحواً و صرفاً وبياناً في صفحات الوصف، وبأسلوب السرد الذي التزم هيكل فيه بـ" متانة لغته، وفصاحة أسلوبه، وكنت قرأت هذه الرواية، من سنين عديدة وظننت اعتماداً علي الذاكرة أن الحوار فيها معبأ بالعامية المصرية، ولكن إعادة النظر فيها جعلنى أقف علي الحقيقة كاملة ؛ لأن العامية بها لا تكاد تُذكر خاصة أن الحوار كان قليلاً والاعتماد علي الرسائل كان كثيراً، وبين المواقف الحوارية المعدودة التى أشرنا إليها، تبدو بعض هذه المواقف قليلاً بدرجة لا تذكر, وليست بالغة الطول، وإنما هي شديدة القصر، ومن الحوارات التى أجراها الكاتب بين بطل الرواية حامد ابن الذوات وابن القاهرة وأوروبا وبين بطلة الرواية زينب الفلاحة المصرية الجميلة، ما صاغه الدكتور هيكل هذا الحوار:"تخلصت من يده بنظرة باردة دعته أن يسيرا معاً في طريقهما فالوقت مُمْس، وهي لا تُحب كذلك أن يراهما في مكانهما أحد.

– فتنهد حامد وقال " أنتِ يا زينب نسْيتينى، ونسيت أيامنا اللي فاتت ؟،

– لا .، منستش، لكن أنا أتجوزت هه .الأيام اللي فاتت فاتت ! ياللا نروح .

– ثم تنهدت من أعماق قلبها تنهداً طويلاً وقامت، فسارا معاً حتى افترقا عند مدخل القرية، وقد لزما السكوت طول الطريق"[3].

تلك هي دلالات اللغة وخصائص الفصحى، وما بها حوارات قصيرة تكتنفها بعض الكلمات العامية القريبة من الفصحى، التى تتناسب مع الموقف ولا تقدح في خصائص الأسلوب عند هيكل، والذي تأكد التزامه الفصحى بشكل تام في روايته التالية "هكذا خلقت".

تعد رواية ثمن التضحية "حامد دمنهوري" من أبرز الروايات الأدبية في فن الرواية بالمملكة العربية السعودية[4].

2- وقد ظهرت مطبوعة للقراء في 1959 م، وتعرض لمجموعة من القضايا مثل تصوير البيئة الحجازية، وانبثاق الوعي وبدء ظهور الطبقة المتوسطة المتعلمة المثقفة، ومشكلة تعليم الفتاة ومشكلة الزواج.

– وتدور أحداث هذه الرواية حول شخصية البطل فيها وهو أحمد عبد الرحمن الذى يعيش في مكة، ويعتبر زواجه من ابنة عمه فاطمة في حكم المقرر الذي لاشك فيه، ثم يرتحل إلى القاهرة، لدراسة الطب ويلتقي زميلة (مصطفي لطفي) ويري أخته فايزة، ويرغب في الزواج منها لكنه فى النهاية يعود إلى وطنه، ويتزوج من ابنة عمه مُضحياً بحبه الذي تركة في مصر، تلك هي فكرة الرواية .

ويعنينا في التعرض لهذه الرواية أن نبحث عن خصائص اللغة فيها، وقد فتح د. منصور الحازمى مجال الكلام في هذا الموضوع عندما أعد مقدمة لهذه الرواية في طبعتها الثانية، وعرض فيها للغتها من خلال الحديث العام عن الفصحى والعامية ومن كلامه في هذه المقدمة ما يأتي ..."لقد أحسن المؤلف صُنعاً عندما تجد حواره باللغة العربية الفصيحة، وكثيراً ما اختلف النقاد والأدباء حول استعمال العامية في السرد والحوار، وأساغها بعضهم في كلتا الحالتين، ولم يسُغها البعض، بل استبعدها جملة في مجال العمل الأدبي، كما توسط آخرون فأجازوها في الحوار دون السرد لا العكس.

وقال: "إننا في حاجة إلى استعمال الفصيحة في الحوار والسرد معاً بشرط أن تكون هذه اللغة قريبة من اللغة اليومية التى نتخاطبُ بها ؛ بعيدة من جهة أخرى عن الإسفاف والابتذال، وإذا أردنا أن نقرب بين الفصيحة والعامية فإننا نقرب في واقع الأمر بين أحاسيس العرب ومشاعرهم فَيفهمُ الأثر الأدبي في كل جزء من أجزاء الوطن العربي الكبير"[5].

علي أن الثابت من مطالعة هذه الرواية أن السرد خال تماماً من العامية، التى إذا فُهمت في جزء من الوطن فلا تفهم في بقية أجزائه، وقد كان الحوار في ثمن التضحية فصيحاً أيضاً لكن احتكام المؤلف أو غرامهُ بأن تتجلي بعضُ ملامح البيئة في روايته جَعله يستعينُ أحياناً ببعض الألفاظ والتعبيرات، وإن ذلك لا يقطع بفصاحة الأسلوب في الرواية ولا يطعنُ في التزام الكاتب بالفصحى، وإن كان من الأفضل أن يخلو العمل من تماماً من كل كلمة عامية، يغيب معناها عن الآخرين الذين يحيون في بلدان أخرى واستكمالاً لما سبق إثباته من حامد دمنهورى " علي أن الحوار وهو منتزع من البيئة المحلية يتطلب قوالب معينة من التعبير تحمل الطابع العربي الفصيح، كما تحمل النكهة المحلية الأصيلة، ولقد زاوج المؤلف بين هذين الغرضين في حواره ووفق في ترجمة الأفكار العامية إلى اللغة الفصيحة، ومزجها ببعض الكلمات والأمثال العامية الخفيفة "، من ذلك قوله: "فال الله ولا فالك، كيف تدفع ضعف الإيجار الحالى شرشف، بوال، برزة، جيبتك ياعبد المعين تعينى، احيينى اليوم وامتنى غداً، وكأننا يا بدر".

إن هذه الرواية علامة فارقة في تاريخ الرواية بالسعودية .

ويمكن أن يكون التاريخ لهذا الفن مرتبطاً بحامد دمنهوري مثل ارتباطه في مصر بالدكتور هيكل، وتكاد تكون اللغة في دلالاتها، وخصائصها العامة قريبة من لغة الرواية عند نجيب محفوظ.

ولا يبقى فيما يتصل بهذه الرواية سعياً إلى البحث عن خصائص لغتها سرداً أو حواراً إلا أن نُقدم بعض السطور مما صَوّره " الكاتب بقلمه عندما كان بَطلُ الأحداث علي أرض مصر قال:"منذ عام أو أقل عندما رأي "فايزة" علي باب مسكنها، دون أن يعرف اسمها، ومنذ اكتشاف الشبة الكبير بين سماتها وسمات ابنة عمه "فاطمة" علي اختلاف قليل في اللون، ثم التعرف علي اسمها الذى من ربطها في ذهنه ب"فاطمة" ثم إعجابه بهوايتها للفنون الجميلة، قمة ما يصبو إليه الذهن المترف، ثم صفاء قريحتها في النقاش والاستدلال في محاجاتها لأخيها ولأحمد" بالحجج القوية، ثم أسلوبها المشرق في

الحديث، ذلك الإشراق الذي يدل علي مبلغ تأثرها بما تقرأ، ثم ما لاحظه من اهتمامها بالقراءة والإطلاع، منذ أن بدأت أحاديثهم تأخذ طابع الانفعال والتحمس الهادئين"[6].

تلك هي ثمن التضحية في أحداثها وشخوصها ولغتها التى تؤهلها لأن تكون واحدة من الروايات العربية المتميزة في الأدب الحديث.

3- لقد عاش نجيب محفوظ حياتهُ للأدب مع أنّه قد تعلم الفلسفة في كلية الآداب لكنه مارس هوايته المختارة، وعكف فيها علي الرواية والقصة القصيرة مما وضع أدبة فى درجة عالية من التميز طوال قرابة السبعين عاماً، وتنقل بين عدد من الاتجاهات من حيث الموضوع ومن حيث الشكل الروائي، لكن اللغة عنده بقيت علي قداستها ومتانة تركيباتها، وقد تُوجّ تاريخه بالفوز بجائزة نوبل في مجال الأدب عام 1988 م.

وأرتبط بالبيئة المصرية، وتنقل بين عدة بيئات كان فيها قريباً من الأحداث, لا يجنح إلى الإسفاف والابتذال، وإنما كان حريصاً علي فصاحة اللغة وجمال الصياغة ودقة العبارة مما أهلّه للمكانة التى ارتقي اليها، وقد كانت له بعض الأعمال الإبداعية التى أثير حولها لغطٌ كبير, واختلف بعض الناس حوله وبشأن ما قيل عن روايته " أولاد حارتنا" ولم تتحْ لي فرصة كافية حتى الآن لأستجمع خصائص هذه الرواية التى مُنع طبعها في مصر ثم طُبعت أخيراً في لبنان، وعادت وأخذت حقها من الشهرة الإعلامية، لكن القول المعول عليه في هذه السطور عملُ آخر ربما لم تتحقق له من الشهرة ما تحقق لغيرة، وأقصد هنا رواية "حضرة المحترم"، وهي قصة، موظف مطحون، اختار له نجيب محفوظ اسماً مصرياً هو عثمان بيومي الحاصل علي البكالوريا بتقدير ممتاز، وقد عمل في إحدى الشركات، وكان سعيه للحصول والوصول إلى درجة المدير العام، وكان مسكنه في أحد أحياء القاهرة القديمة وكانت حياتهُ بسيطة بساطة البيئة الشعبية التى أقام فيها، وحَصُل علي شهادة ليسانس الحقوق فرقي للدرجة السابعة.

وكان سعيه آنذاك في خط متواز□ إلى الزواج من فتاة تكافئه، وقضى حياته الوظيفية نموذجاً للاتزان علي كافة الأحوال، وسعى إلى الزواج الذي لم يتيسر له طوال رحلته الطويلة ولما أذن فجر حياته أن يبزغ وبدأت تبتسم له الحياة بوظيفة المدير العام والزوجة المرغوبة.

لكن سعيه إلى ذلك والتزامه في عمله وحياته لم يشفعا له فى أن تبتسم له الحياة ...فلحق به المرض الذي أفقده عن الوظيفة، وأعجزه عن الزواج.

إذن فعثمان بيومي نموذج بشرى، لرجل مصري يتخذُ من المواقف ما يعلن إنسلاخة من مجتمعة الشعبي، وما يعنينا في هذا الصدد ليس التحليل لهذا النموذج البشرى، ولكن التأمل في خصائص اللغة في "حضرة المحترم".

- لقد عرضت الدكتورة نبيلة إبراهيم لهذه الرواية من وجهه نظر الدراسات اللغوية الحديثة، لكن هذا العرض يمثل الرمز ودلالات اللفظ وإيحاءات الجملة من خلال انطلاق البطل إلى الحياة، وإحساسه بما يعتريها من نقص يجعلُ طريقه إلى الأمام معوجاً وغير مستقيم, فإذا كان البطل قد عَملَ وقتاً في قسم المحفوظات فإن وجود الأتربة والثعابين في هذا

القسم يجعل للتعبير اللغوي دلالات تتواكب أو تتعانق مع مكونات حياته، وأبانت قيمة اللغة كالجملة الحالية وأسرار الاستفهام وغيره، ومستوي الحوار وخصائص اللغة التى تضخم شخصية البطل, ومدي ارتباطه بالمجتمع إلى غير ذلك من الدلالات اللغوية المتعددة، لكن الذي يعنينا فى هذه الرواية هو التعرف علي مستويات السرد والحوار عند نجيب محفوظ، فهل لجأ إلى العامية في حواره أم تبقي علي فصاحته كشأنه مع السرد ؟

– والحقيقة أن اللغة عند أديب نوبل ذات مستوى ثابت لا تئن فيه اللفظة من بُعدها عن قواعد النحو والصرف ولا تبتسم لإغراقها في عامية مبتذله تطعن في المستوى الراقي الذى سلكه المؤلف طوال حياته .

ولذلك فإن هذه الرواية تعد من أفضل ما يمثل اللغة الثابتة الأصيلة التى تحتفظ بوقارها ولا تتحول إلى العامية، اللغة التى تُقرأ في مصر وفي العراق وفي الجزائر وهي اللغة التى توصف بالفصحى ويمكن أن توظف بشكل جيد، للتعبير عن المواقف الشعبية أو المضمون الاجتماعي، ولكن بلغة توصف أحيانا بأنها لغة الصحافة .

وعرض نجيب محفوظ لعذابات بطل الرواية الذي رُقي إلى مدير الإدارة ولا زال أمله مُتعلقاً بالترقي إلى درجة المدير العام ونقتطف من سطور حضرة المحترم هذه الفقرة .. التى قال الكاتب فيها "ولم يطُل به العذاب فقد صدر قرار ترقيته إلى درجة مدير الإدارة في نفس الشهر وفيما بعد تذكر ذلك اليوم بوجد وكان يقول: "وقعت المعجزة في غمضة عين" وقال أيضاً: "لم يَعُد يفصل بيني وبين المدير العام فاصل، من الكادر !

ولكن كيف وقعت المعجزة؟ جري في تقديره يوماً أنه سَيُحال علي المعاش قبل أن يتحرك أحد في الطابور أمامه؟ ولكن حدث تعديل وزاري أُختير فيه وكيل الوزارة وزيراً، ثم أعقبَ علي ذلك التغيرات السعيدة المفاجأة . وقال له بهجت نور وكيل الوزارة :– رقيتك رغم الاعتراضات الكثيرة فشكر له فضله، ولكنه تساءل بأسف.

– ولماذا الاعتراضات؟

– فقال الوكيل :

– إنك فوق قمة عُمرك الحكومي فلا يمكن أن تجهل سبباً مما تسأل عنه..

– علي أي حال انفتحت نفسه للعمل كحاله الأول، وتعهد أمام ربه بأن يُسجل في رياسته الإدارة تاريخاً فذاً حافلاً بالعلم والذكاء والفتاوى الخالدة، وأن يثبت للجميع أن الوظيفة عمل مُقدس وخدمه إنسانية وعبادةٌ بكل معني الكلمة"[7].

إن التعرض بالإشارة السريعة لهذه الرواية أو لغيرها يأتي من خلال اللغة الفصحى واللهجة العامية، وقد وضح من البوح السابق مقدار التميز الذى ارتقى إليه نجيب محفوظ.

ثالثاً: المصابيح الزرق لحَنَّا مينه

1– يُعد الروائي حنا مينه من أبرز الأدباء العرب في كتابه الرواية العربية إذ دَخَلَ إلى القارئ من خلال روايته الأولي "المصابيح الزرق"، التى حققت شهرةً واسعةً في سوريا أولاً ثم في مصر وبعض البلدان العربية ثانياً، ولم تكن نشأته

البسيطة المتواضعة تؤهله لأن يحيا قريباً من الثقافة الأدبية والإبداعية لكن موهبته هي التى تشفعت له ودفعته بقوه للقراءة والكتابة ومن ثم الشهرة والذيوع .

وقد ولد في حي القلعة بمدينة اللاذقية في التاسع من مارس عام 1924 م، وانتقل في طفولته المبكرة إلى لواء الأسكندرونة ثم عادوا إلى حيث وُلد باللاذقية فقد كانت هي عشقه وملهمتهُ التى لم يبتعد عنها كثيراً إلى أن استقر في دِمشق عام 1947 م، أما نشأته، فكانت مليئة ومعبأة بالعنت والإرهاق، إذ تنقل بين مهن كثيرة حيث اشتغل عاملاً في ميناء اللاذقية وبحاراً وحلاقاً، وموظفاً حكومياً، إلى أن تكشفت موهبته حيث عمل بالصحافة، وكتب في مستهل حياته عددا من المسلسلات الإذاعية باللهجة السورية، وسارت به الحياة، وتمخض إبداعه القصصي عن ثلاثين رواية أدبية أو أكثر فضلاً عن عدد غير قليل من القصص القصيرة.

وكانت حياته الاجتماعية مستقرة حيث تزوج وأنجب البنين والبنات، وأسهم في رابطة الكتاب السوريين واتحاد الكتاب العرب.

وقد تحولت معظم رواياته إلى أفلام سينمائية ومسلسلات تلفيزيونيه، وارتبط بالبيئة وبالبحر وأهله، إذ كان البحر مصدر إلهامه ومنبع تفكيره، كما جاء في مقدمة المصابيح الزرق التى كتبها في عام 1954 م وأعدها في ثلاث سنوات وكانت هذه الرواية أولي رواياته، وترجمت إلى الروسية والصينية, وكانت بوابته لاقتحام عالم الأدب بقوه وجسارة .

ولعل تصنيفه بين الكتاب اليساريين نابعُ من تأثره بالأدباء الروس، وخاصة مكسيم جوركي واحتكاكه بالطبقات الدنيا بالمجتمع[8].

2-تنقسمُ "المصابيح الزرق" إلى ثلاثة فصول غير متساوية، إذ كُتب الفصل الثاني في قرابة مائه وستين صفحه بينما جاء الثالث في خمس عشرة صفحة، ولا توجد حدود فاصلة بين فصل وآخر سوي تجزئه كل فصل إلى عدد من المقاطع لا تأثير لها في ترابط الأحداث، ويبدو أنها طريقة هدف بها الكاتب إلى هذه التجزئة العشوائية، وقد بدأت الأحداث من خلال فتى فى دور المراهقة وحَولهَ أبوه وأمه وأخوته، وبعض الرجال والنساء في المنزل والشارع والحي, يشكلون صراعات مختلفة في الحياة وضد المستعمر الفرنسى، الذي كان يبحث عن حماية من الجيش الألماني في سوريا وليبيا وفي غيرهما من البلدان العربية وغير العربية أيضاً.

ولذلك فإن إطلاق اسم المصابيح الزرق علي هذه الأحداث إشعار بأنّ الوقت زمن حرب، وأن طلى زجاج المصابيح باللون الأزرق لتخفيف أضوائها، وتلك بعض تعليمات الأمان خاصة في وقت الغارات الجوية بالطيران.

و إذا كان الشخص الأول في الرواية هو (فارس) الذي بدأت الأحداثُ به فإن النهاية قد جاءت أيضاً مرتبطة به حيث تمّ الإخبار عن فَقدهِ وعدم عودته من ليبيا حيث كان متطوعاً للقتال في صفوف الفرنسيين ضد الألمان، وقد لجأ فارس لهذا التطوع بعد أن عاني من أثار البطالة, وعدم مقدرته علي إيجاد المال الذي يُتمم به زواجهُ من محبوبته (رندة) فالتطوع ليس حباً في الفرنسيين وليس كرهاً للسوريين وإنما كان علاجاً لمشكلته مع الحياة .

إذن فالبطولة لفارس وَحْدَهُ أولاً ثم من خلال الجماعة ثانياً، وهم أبوه وأمه ومحبوبتهُ (رندة) ومريم السوداء وزوجها نايف الفحل والصفتلي وجريس المختار وأمُّ صقر وعددٌ آخر من الشخصيات التى ينهض كل واحد منها بعمله الذي يتقوت منه، وفى مجالس الليل بالبيت الكبير الذي يتسع لعدد من الأسر، وخلال ذلك يشارك في معركة الفُرن حول أرغفة الخُبز، ويُساق مع غيره إلى المخفر البوليسي والانتقال منه إلى سجن اللاذقية الذي رُحل منه إلى سجن حلب، ومن ثمَّ العودة للإفراج عن مجموعة من المساجين حيث عاد إلى اللاذقية، وأخذ يبحثُ عن عَمل، وتسوقه الأقدار إلى أرملة معلمه التى سعت إلي تعيينه فى شركه للحفر، ولا يلبث إلا أن يُفصل منها، فتطوع في الجيش الفرنسي، وكانت نهاية الحرب العالمية الثانية والإعلان في الوقت نفسه عن موت محبوبته في لبنان آنذاك، وتشتعل سوريا بالمظاهرات مُطالبه بإجلاء المحتلين، ولعل الحياة التى تعيشها سوريا الآن تجعل من رواية "المصابيح الزرق" صحائف تاريخية أصيلة تم بعثها وأحياؤها من جديد.

لكن هذا العرض الموجز للأحداث لا نهدف من ورائه إلى عرض مسيرة الأشخاص، وإنما نَسعى إلى إبراز القيمة الفنية والتصويرية، لهذه المصابيح، فالشخوص تتقارب وتتباعد وأكثرهم يعملُ بالتجارة والمهن الأخرى البسيطة، إذ هُم يمثلون إحدى طبقات القلعة، وهم مختلفون عمن يقيمون في شارع فرنسا فالجماعية متحققة في أحزانهم وأفراحهم، والعراك يبدأ وينتهي وتستمر الحياة.

3- لم يتيسر لنا بشكل جيد أن نُطالع كل ما كتب عن المصابيح الزرق وبالتالى لا أستطيع أن أضع هذه الرواية في ميزان النقد الحاسم، لكن الحقيقة التى يجب إثباتُها هي ما كتبه الناقد شوقي بغدادي، وهو من رابطة الكتاب العرب في دمشق، الذي أعد مقدمة ضافية للرواية, واختار لها – أى للمقدمة – عنواناً هو (قبل أن نبدأ) فقد كان هذا الرجل في ضوء ما أطلعنا عليه صديقاً لحنا مينه وكان هو وجماعة من النقاد يطالعون – أولاً بأول – ما يكتبه في هذه الرواية، ويستجيب كثيراً لنقدهم فيغير فيها، إضافة أو حذفاً، وطَالعَ الرواية قبل أن تُطبع مما أعطى لها تميزاً وبراعة من النقد وقليل من المبدعين يفعل ذلك، فإذا تجمعت الموهبة والفكرة الناضجة واللغة الملائمة والمعبرة تحقق للعمل بعض النجاح قبل أن يُطبع ولذا فأن بعض النقاد يرى أن هذه الرواية ليست الأولي لهذا الأديب مهما كبرُ سنه، ولكن محتوياتها تشى بأن صاحبها أديب فحل كَثرُ منه الصيال في عالم الإبداع.

ولا تعنيني هنا أحداث الرواية ولا شخوصها وإنما أهدف في المقام الأول إلى كشف غطاءات اللغة وأساليب السرد والحوار، وبيان الكلمات والصياغات التى تكشفُ عن تفرد هذا الكاتب وتميزه في امتلاك ناصية الكلمة، وبعث العديد من المصطلحات من مراقدها التى بقيت فيها إلى زمن هذا الروائى الكبير.

وأنقلُ إلى القارئ ما كتبه شوقي بغدادي في مقدمة المصابيح، قال: "ثمة أشياء كثيرة جديرة بأن تقال في الحديث عن هذا الكتاب، ولكننى أكتب مقدمه لا دراسة، ومع هذا فلا بد أن نقف أمام ظاهره أخرى ناجحة في الرواية، تلك هي الحوار . فالكلمات التى استعملها حنا طبيعية، وجميلة لدرجه تُشعرنا الثقة أن دور الأدباء في حل مشكلة الفصحى

والعامية دور كبير جداً فالكاتب لم يستعمل العامية الصرف ولا الفُصحى العالية، ثمَّة مُحاولة للتوفيق كانت ناضجة للغاية، بالنسبة إلى الحوار الذي نقرؤه للكتاب الآخرين وإلى حد ما بالنسبة إلى الحل النهائي الذي نترقبه بمشكلة اللغة التى يتكلمها الناس عندنا[9].

ومن خلال هذه الفقرة تتجلي أمامنا قضية الفصحى والعامية ومدي قدرة الأديب علي توظيف اللغة من ناحية الوصف ورسم الشخوص وتفعيل الرمز وبعث الكلمات التى توشك أن تموت من مراقدها وتقديمها للأديب والقارئ فيما يتناسب وقدرات كل متلق للغة حسب ذوقه وميوله.

واستطاع كاتب هذه الرواية أن يطوع اللغة للسرد المعبر والراصد لحركة الحياة،فقد قدم رصداً ووصفاً دقيقاً لحركة الحياة فى الشارع بمدينة اللاذقية فقال: " وعاد الشارع فأقفر من جديد، ودخل كلُ بيتهُ، ولم يبق إلا المصابيح الزرق ناعسةً واهنة الضوء، ونباح كلاب روعت فانطلقت من كل صوب، وقد لف الظلام المدينة بعد أن حجبت سحب الخريف وجه السماء وأطفأت قناديل النجوم، ولطمت رياحٌ باردةٌ مصاريع النوافذ المفتوحة منذرةً بالمطر القريب"[10].

وقال أيضاً فى موضوع آخر: "كان الفجر الخريفى مايزالُ يمعن فى تشقيق ثوب الليل، فترسم خطاً جديداً فى لوحة الصباح المتبلج عن إشراقة النور، وكانت صبحاتها أولى نداءات اليقظة، يردفها صوت المؤذن فى ندائه الأبدى : "الله أكبر..." وتنضم إليها زقزقات العصافير فتؤلف جميعاً لحناً بتولاً ترفعه الأرض فى هذه الساعات الطهور صلاة حارة إلى السماء "[11].

تلك هى بعض إمكانات حنا مينه فى لغته السردية الراصدة لأحداث الرواية، وشخصياتها. وقد جاء على لسانه فى الفقرة السابقة نداء "الله أكبر..." وكلمة البتول مما ينم عن رغبة فى إشعار القارئ بمدى التقارب والالتحام بين الناس فى مجتمع اللاذقية ممن يدينون بالإسلام والمسيحية، ولذا فقد تحدث الكاتب عن بعض الطقوس والعبادات التى تنبع من الإنجيل أو يلهج بها المسيحيون فى الكنائس، ومن ذلك قوله: "فأغمض جفنيه كقس ساعة ينتهى من وعظه، ويشرع بإدانة الناس :

لابد أن يشنقوه"[12].

كما تحدث عن دين (بيلاطس البنطى) حاكم أورشليم.

إلى غير ذلك من الإشارات والكتابات عن هذا التوجه الذى هدف حنا من ورائه أن ينشد التقارب بين الديانتين حسب الذى ذكرناه[13].

كما أن كثيراً من الأطفال مسيحيون، ويتحدثون عن الإيمان والعقائد ومعهم مسلمون، مما يضفى على الرواية طابعاً أخلاقياً هادفاً إذ وحدت الحرب بين القلوب، كما أن الحوار غير منقطع والحديث متواصل ولا وجود لأى تعصب طائفى أو مكانى.

لقد كانت علاقة حنا مينه بالفصحى من خلال المصابيح علاقة راقية تحترم قواعد النحو والصرف، وتحرص على الوصف وترقى بالأسلوب – سرداً وحواراً – ولكن معايشتهُ للواقع وإقترابهُ من البيئةِ العربية فى اللاذقية يجعله – بغير قصد – يورد بعض الألفاظ أو المصطلحات على لسانه تصويراً لحادثة أو وصفاً لشخصية أو نقلاً لعبارة جاءت على لسان واحد من شخوص روايته مما جعله يذكر بعض الألفاظ العامية التى لا تقدح فى حكمنا له أو عليه، بإعتباره رائداً للغة الفصحى، وإن اختلطت حواراته بقليل من الكلمات العامية التى لا أنكر أن بعض منها قد غاب عنى معناه وهذا فى حد ذاته غير مريح، لكننا نقبله على استحياء مع إثبات رغبتنا الكائنة المستقرة فى أعماقنا وهى التمسك بالفصحى، والتضحية ببعض مشهيات الواقعية التى لا أظن أن القارئ المثقف فى حاجة ملحة إليها ومن أمثال ذلك: حالكم ماشى[14].

صاح الصفتلى :" ينكم يا"[15] (ولم أفهم ذلك).

وقوله: "يا مختارنا ..خيط بغيرها لمسلة"[16].

وقوله: "وعاد إلى مكانه فى القاووش" [17].

وقوله: " إذن لنستريح"[18] فقد تحللت الكلمة من قواعد اللغة[19].

وغير ذلك من الكلمات والجمل القصيرة التى لا تخل بالفصحى، كما ذكرنا.

وقد استطاع أديبنا (حنا) أن يوظف قدرته على الحكى والإثارة وإن استطرد أحياناً إلى حكايات جانبية رآها مكملةً للصورة التى يهدف إلى رسمها، كما كان متميزاً فى سرده وحواره وتصويره باللغة الراقية لكل الشخوص والأحداث الروائية، لكن توظيف المصطلح العربى السورى كان محدوداً وغامضاً مثل كلمة الجامات وغيرها .

أما ارتباطه بالبيئة الاجتماعية فكان كبيراً ومتميزاً، وقد تعلق قلمه المعبر بفارس بن ميخائيل طوال الأحداث، وجاءت الشخصيات الأخرى قريبة منه ومشاركة له مما جعل الحركة فى الرواية فردية وجماعية، ولكل ذلك أو لبعضه اعتبرت المصابيح الزرق علامةً فارقة ومتميزة فى مسيرة الرواية العربية على سائر أرض الوطن.

رابعاً: نتائج وتوصيات

1- حتمية الحرص علي الكتابة الروائية باللغة الفصحى، فهي من عوامل الوحدة العربية, والتقارب بين الشعوب العربية .

2- لا يمكن إغفال اللهجات العامية فهي متداولة علي ألسنة الكثيرين في المحافل الأدبية، والمنزل والشارع والمدرسة والجامعة، ولكن ينبغي الحذر من سطوتها، وتأثيرها علي قنوات التواصل الأدبية، والإعلامية والثقافية، ولذا يلزم تحجيم مستوي التعامل بها، وعدم التوسع فيها .

3- ضرورة الاحتكام إلى التدرج في التخلص من العاميات المنتشرة في البلدان العربية، والقضاء علي الحماس المتوهج في صدور بعض المثقفين حول العامية الخاصة بهم، والمنطلقة علي ألسنتهم.

4- اللجوء إلى اللغة العربية السهلة الميسرة، التى توصف باللغة الثالثة، حيث تتناسب مع العصر، ويرضاها، ويأنس لها الأدباء والنقاد والقراء في كل أرجاء العالم العربى.

5- ضرورة الاحتكام والرجوع إلى الأعمال الروائية المتميزة، في مسيرة الأدب العربى الحديث.

الهوامش:

(1) زينب ص 9 دار المعارف 1979 م.

(2) زينب (الرواية) ص 228.

(3) زينب ص 206، 207.

(4) أعددت دراسة عنها في كتابي فن الرواية بالمملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور.

(5) انظر مقدمة ثمن التضحية ص19، ص20.

(6) ثمن التضحية لحامد دمنهوري ص 261 .

(7) حضرة المحترم لنجيب محفوظ ص 127/ص128 طبع دار القلم ببيروت 1977م.

(8) راجع ما كتب عنه في بانوراما الرواية العربية الحديثة – د. سيد حامد النساج ط1 1982 صـ 131، المركز العربي للثقافة والعلوم.

(9) المصابيح الزرق – المقدمة بعنوان: قبل أن تبدأ لشوقي بغدادي ص 15, 16 طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة عام 2002 م.

(10) المصابيح الزرق ص 106 .

(11) السابق ص 110 .

(12)السابق ص 122 .

(13) راجع ما ذكرناه بالصفحات 125، 205، 263، 284 .

(14) ص 77.

(15) ص 85 .

(16) ص 139 .

(17) ص 156 .

(18) ص 127 .

(19) ص 302 .

أهم المصادر والمراجع

1- أصوات الأرض والحب والثورة – د. السيد محمد الديب – طبع الهيئة المصرية للكتاب عام 2010 م.

2- ألوان من الأدب والفكر والحياة – د. السيد محمد الديب – طبع مركز آيات بالزقازيق عام 2007 م.

3- بانوراما الرواية العربية الحديثة – د. سيد حامد النساج – طبع المركز العربي للثقافة والعلوم عام 1982م.

4- ثمن التضحية – حامد دمنهوري – طبع النادي الأدبى بالرياض عام 1980 م الطبعة الثانية

5- حضرة المحترم – نجيب محفوظ – طبع دار القلم – بيروت عام 1977 م.

6- دراسات أدبية – يوسف الشاروني – طبع النهضة المصرية

7- الرواية العربية – مقدمة تاريخية ونقدية – روجر ألن ترجمة حصة منيف – طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام 1986 م

8- زينب – د.محمد حسين هيكل – طبع دار المعارف بمصر عام 1979 م

9- علي هامش النقد – شكري عياد – طبع أصدقاء الكتب عام 1993 م

10- فن الرواية في المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور – د. السيد محمد الديب – طبع دار الطباعة المحمدية عام 1989 م.

11- فن الرواية المصرية – فؤاد دوارة – طبع دار الكتاب العربي عام 1968 م

12- فن كتابة القصة – فؤاد قنديل – طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة عام 2002 م

13- فيض الخاطر – أحمد أمين – ج6,5، ج10,9 – طبع النهضة المصرية

14- في منزل الوحى – د. محمد حسين هيكل – طبع دار المعارف بمصر عام 1979م.

15- في نظرية الرواية د. عبد الملك مرتاض – طبع عالم المعرفة ديسمبر 1998م

16- كيف تكتب القصة – د. عبد العزيز شرف – طبع مؤسسة المختار عام 2001 م

17- مستقبل الثقافة في مصر – د. طه حسين – مطبعة المعارف عام 1944 م

18- المصابيح الزرق – حنا مينه – طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة عام 2002م

19 – نظرات في الأدب والنقد – عبد الرزاق البصير – كتاب العربى يوليو 1990 م

20- نقد الرواية – من وجهه نظر الدراسات اللغوية الحديثة د. نبيلة إبراهيم – طبع النادي الأدبى بالرياض عام 1980 م.

21- دوريات:

1- المنهل – العدد 441 السنة 52 المجلد 47 (نوفمبر – ديسمبر عام 1986م)

2- الهلال العدد الأول السنة 101 (أكتوبر 1992م)

22- مواقع الكترونية:

1- http://www.alitthad.com

2- ويكيبيديا. http://www.wikipedia.com

د. السيد محمد أحمد ديب

أستاذ الأدب والنقد – جامعة الأزهر بالزقازيق – مصر

عضو اللجان العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين

محمول 00201287733010

منزل 0020552362022

فاكس 0020552301844

عمل 0020552304114

Sayed.addeeb@hotmail.com